

"الشحاذ": إنعكاس الأزمات النفسية^(١)

الدكتور صلاح الدين تاك*

إنّ الفكرة الأساسية المسيطرة على روايات المرحلة الجديدة^(٢) لنجيب محفوظ هي فكرة البحث العميق عن الحقيقة وعن المجهول وعن هذا الشيء الذي يفسر الأشياء كلها ويعطيها معناها العميق^(٣). وقد تتضح هذه الفكرة اتضاحا كثيرا في رواية "الشحاذ" التي هي حجر الزاوية للمرحلة التي تنتمي إليها والتي تعد نموذجا بليغا من تجربة نجيب محفوظ الفنية. وقد تعالج روايات هذه المرحلة قضايا ذهنية ووجودية من خلال أبطالها الذين يعانون المشقة والعذاب خلال بحثهم عن المجهول وعن أسرار الكون وخفايا النفس البشرية وما إلى ذلك. وأما الرواية التي يساق عنها الحديث فكلمة "شحاذ" فيها يختلف عن غيره من الشحاذين. فالبطل شحاذ غني وعريق لا يحتاج إلى المال والجاه وإنما يحتاج إلى معرفة أسرار الكون ومعنى الحياة، ولذلك يطلب العون والمساعدة من كل ما في هذا الكون من قوى وعناصر بطريقة أو بأخرى.^(٤)

تبدأ هذه الرواية عند ما يذهب "عمر الحمزاوي" وهو بطل الرواية، إلى عيادة الطبيب ويشكو إليه من ضيقه بكل الشيء.... بزوجته وبناته وعمله وبكل من كان يرتبط به ويحيط به بل بالدنيا كلها. كان تشخيص الطبيب لمرض عمر الحمزاوي بأنه مرض بور جوازي ولكنه كان مرضا وجوديا يلح عليه ويضطره إلى أن يبحث عن معرفة أسرار الكون وما وراءه^(٥). وذلك لأن عمر الحمزاوي ليس كالناس المحدودي الثقافة الذين هم مطمئنون ولا يعرفون القلق المدمر والتأمل العميق الذي عاناه عمر الحمزاوي فلا شيء يفسد عليهم بالحياة، وعلى الرغم منه أنهم يعيشون الحياة في دعة وأمن وسلامة. أمّا عمر الحمزاوي فهو ليس مثلهم، غير أنه لا يحاول أن يتقدم خطوة واحدة راسخة لبحثه عن المعرفة وإنما يزحف في طريق

* الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر (الهند)

البحث زحافاً بطيئاً بحيث تبعث أسرار الكون شيئاً من الغموض في نفسه وعينه على السواء^(٦). ونعرف هذا بوضوح إذ أشار إليه مؤلف هذه الرواية من خلال الطفل الذي كانت تمثله اللوحة التي نظر إليها عمر الحمزاوي وهو في عيادة الطبيب. كان هذا الطفل "يمتطي جواداً خشيباً ويتطلع إلى الأفق عارضاً جانب وجهه الأيسر وفي عينيه شبه بسمه غامضة"^(٧). وهنا يمكن لنا أن نقارن هذه الرواية مع رواية "فاوست" (Faust) للكاتب الألماني "غوته" (Goethe) التي جاوزت جميع الحدود إلى ما لا النهاية من أجل البحث عن المعرفة. فإذا كان "فاوست" تمهيداً للنهضة العلمية عند الأوروبيين، نجد عمر الحمزاوي في رواية "الشحاذ" ممثلاً للإنسان المصري وأزمته يعبر تعبيراً صادقاً عما كان يدور في نفوس هذا الإنسان في الستينات من القرن العشرين.

كان عمر الحمزاوي في بداية حياته شاعراً وإشتراكياً ثورياً يحلم بمدينة فاضلة وعدالة اجتماعية وكان يعمل لتحقيق ذلك بجد وإخلاص. وكان في طريق الثورة والاحتجاج يشاركه صديقه عثمان خليل ومصطفى المنياوي، ولكن إذا قبض على عثمان خليل خلال الجهاد والاحتجاج ترك عمر الحمزاوي الفن والشعر حتى طريق الثورة وأصبح محامياً كبيراً بل رجلاً ناجحاً ثرياً وكان عمره آنذاك عشرين سنة. أما صديقه مصطفى المنياوي فالتصق بالفن غير الجاد ولم يتجه إليها لئلا يكسب العيش. فكان يكتب بقلمه فقط دون إيمان شخصي بما كان يكتب^(٨)، حتى نجده يقول لعمر الحمزاوي في بعض اليوم: "لم يبق للفن إلا التسلية، وسينتهي يوماً بأن يصير حلية نسائية مما تستعمل في شهر العسل". وكان عمر الحمزاوي كما ذكرنا آنفاً في بداية الأمر يتفكر في قضايا العدل والاشتراكية ولكنه خان مبادئ نضاله عندما تغيرت الظروف بحيث أخذت مقاومته تقل حتى أنه نفسه ترك إهتمامه بالشعر والفن مثل صديقه مصطفى المنياوي، ولكننا بالرغم من ذلك كله نجده يعبر عن ألمه العميق المسبب بقضية صديقه قائلاً له: "اقرأ أي كتاب في الفلك أو في الطبيعة أو في أي علم من العلوم وتذكر ما تشاء من المسرحيات أو دواوين الشعر ثم اختر بدقة إحساس الخجل الذي سيجتاحك"^(٩). وهذه هي نفس القضية التي عبر عنها نجيب محفوظ قبل ذلك في روايته التاريخية

"رادوبيس" حيث انتقد انتقادا عنيفا على الكتاب الذين لا يكتبون إلا لكسب العيش فيشو هو الفن تشويها بالغاً^(١٠).

إن بطل رواية "الشحاذ" في صراع مع بيئتهومع كل من يتعلق به وما يحيط به. وقد خلقت صراعاتك الاضطرابات التيأخذت تضطربه بعد أن سئم من الحياة الزوجية وترك كفاحه السياسي في حين سجن زميله بسبب كفاحه في سبيل الثورة. وكذلك إنه ترك الفن والشعر بعد أن أحس أن الفن أصبح مجرد لهو وتسلية ولا مكان له في الزمن الذي سيطر فيه العلم على الحياة^(١١) بحيث زال فيه اليقين وغابت عنه الطمأنينة بل زالت فيه كل القيم فالشعر قد مات، والعمل السياسي لم يعد له معنى، والعمل فقد قيمته. وهذه هي الأزمات النفسية التي فأجاته عندما وصل إلى سن الخامسة والأربعين. وهذه الأزمات عصفت بحياته وجعلته يشعر بأن كل شيء لا معنى له، فهو يشخص مرضه بنفسه قائلا: "لا أريد أن أفكر أو أن أشعر أو أن أتحرك، كل شيء يتمزق ويموت، وكثيرا ما أضيق بالدنيا، بالناس، وبالأسرة نفسها". وقد اكتشف هو أن كل ما حققه من مال وجاه خلال عشرين سنة لم يستطع أن يعوضه عن فقد ذاته الحقيقية التي فقدها عندما شعر بأنه خان صديقه الثوري عثمان خليل الذي اعتقل بينما اختار هو طريق السعادة والحياة الثرية. وبذلك ازدادت رغبته في الفرار من الواقع انتقاما من سنين الترف التي عاشها^(١٢) كما ازدادت رغبته في إيقاع العقاب على نفسه ولا سيما بعد خروج عثمان من السجن كأنه لم يرد أن يراه عثمان متمتعا بحياة الترف بينما يقبع هو بين جدران السجن، على أنه أخذ يطمئن ضميره عن طريق المساعدات المادية لوالدي عثمان خليل، ولكن هذا الشيء لم يكن يُريحه من قلقه وملله. وبذلك كله سئم سامة شديدة من الناس والحياة كلها حتى ترك عمله وأهله وأصدقاءه وأخذ يغرق في الملذات الجنسية أحيانا والهذيان أخرى كأنه كان يسعى إلى تلوين سمعته وتحطيم نفسه أو كان يبحث عن أسرار الوجود على حد تعبير نفسه في كثير من المواضع في الرواية. مثلا إنه قال لبعض شخص: "تصور أن تكسب القضية اليوم وتمتلك الأرض ثم تستولي عليها الحكومة غدا" فأجابه هذا الشخص: "المهم أن نكسب القضية، ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها"^(١٣).

قد ترك عمر الحمزاوي بيته والتقى بـ"وردة" في أحد النوادي الليلية فأقام مع هذه الفتاة في شقة جديدة وبقي معها لفترة من الزمن، إلا أنه لم يجد في هذه التجربة ما يشبع روحه الضائعة أو ما كان يبحث عنه بحيث تركها وانتقل إلى فتاة أخرى "مرجريت، ثم إلى "منى" ولكنه لم يجد في هذه التجارب إلا اليأس والملل. فقد كشف هو أن نشوه الجنس لا تستطيع أن تدوم وبذلك كله أنه ترك هذه التجارب ورجع إلى بيته لعله يهديه الآن إلى التصالح مع واقعه. بالرغم من ذلك أنه لم يمكث به طويلاً فتركه من جديد وأخذ يشحذ بطريقة جديدة معتقداً بأنها طريقة البحث عن الحقيقة وسر الوجود وهي ألا يفعل شيئاً، وها هو يقول: "أن الأوان لأن أفعل ما لم أفعله في حياتي وهو ألا أفعل شيئاً".^(١٤)

وفي هذه الأثناء خرج عثمان خليل من السجن وهو ما يزال ثورياً. إنه حاول أن يحل مأساة عمر الحمزاوي لكنه فشل فشلاً تاماً في ذلك. أما عمر الحمزاوي فإنه أخذ يقيم في حالة جنونية بمنزل بعيد بين الحقول حيث استغرق فيما يشبه التصوف معتقداً بأنه انتقاماً من حياة الترف التي عاشها منذ عشرين سنة. وبعد ذلك اختلط هو بين الخيال والواقع وبنى لنفسه عالماً سيطرت عليه خيالات وتصورات لامعقولية حكمها منطق غير منطق الواقع. مثلاً كان يتخيل "أن بقرة اقتربت منه قائلة: إنها سوف تتوقف عن در اللبن لتتعلم الكيمياء. وزحفت حية رقطاعاً ثم بصقت أنيابها السامة وراحت ترقص في مرح. وانتصب الثعلب حارساً بين الدجاج. واجتمعت جوقة من الخنافس وغنت أغنية ملائكية. أما العقرب فتهدت له في لباس مرضية"^(١٥). وهنا يفسر نبيل راغب هذه اللامعقولية قائلاً: إن عمر الحمزاوي تخيل أن هذه اللامعقولية ربما استطاعت أن تطرد الملل والخمود من حياته^(١٦). وكذلك قال سليمان الشطي عن هذه اللامعقولية: إن عمر الحمزاوي كان يحمل بأن "ينقلب كل شر في هذا العالم إلى خير عام للإنسانية".^(١٧)

في نهاية الرواية عثر أهل عمر الحمزاوي وأصدقاؤه على مخبأه ولكنهم لم يتدخلوا في عزلته ولكن الذي وصل إليها هو عثمان خليل الذي كان البوليس يطارده مرة ثانية فكان يطلب لنفسه الأمن والملاذ. إنه أخبر صديقه عمر الحمزاوي بزواجه من ابنته الكبرى

"بنينة" وبأنهما تتوقعان طفلا. وكذلك طلب منه عثمان أن يرجع إلى بيته لكي يحمي حفيده ويرعاه. ولكن عمر لم يعبأ بأي شيء وإنما استمر أن يكون في حالة جنونه وذهوله بحيث يؤس عثمان خليل منه إلى حد كبير. فلم يلبث أن يتركه حتى أحاطه رجال البوليس وقبضوا عليه وعلى عمر الحمزاوي أيضا فأخذوهما إلى السجن في عربة واحدة. وقبل ذلك أصابت الرصاصة ترقوة عمر الحمزاوي التي كانت بمثابة "الصدمة الكهربائية والتي يفوق المريض بعدها. وكأنها أصابت غيبوبته فشفي منها"^(١٨). فقد أفاق من غيبوبته وهذيانه بحيث ولد في نفسه حماسا للثورة مرة ثانية. فنجدته يتمنى أن سيعوض سنوات نكوصه عن أي شيء. وقد تفجر في نفسه الرجاء والأمل إذا اتفق على أنه سيحي حياة ثورية من خلال ابنه الأصغر "سمير" ويرعى حفيده وهو ابن صديقه الثوري عثمان خليل. فإذا شعر بأنه راجع في الحقيقة إلى الدنيا، أخذ يغني بيتا من الشعر الذي تردد في وعيه بوضوح عجيب:

"إن تكن تريديني حقا فلم هجرتني؟".^(١٩)

وهكذا أفاقه من هذيانه وجموده صديقه الثوري عثمان خليل الذي بالرغم من قضائه عشرين سنة في السجن، ما يزال يؤمن بالشعب وباستمرار الكفاح وهو طريق الثورة الأبدية^(٢٠). ليس هذا فحسب بل انه مستعد لتقديم أي تضحية من أجل تحقيق الحياة الطيبة. وهذه هي أهم خاصية المذهب الاشتراكي الذي استفاد منه المؤلف في ختام هذه الرواية فأبعد عنها عناصر التشاؤم وجعلها رواية متفائلة. وهنا يجدر بالذكر أن في زواج عثمان خليل من بنينة رمزٌ لالتقاء الشعر والعلم. فبنينة تحفظ الشعر وتكتبه، وأما عثمان خليل فهو ثوري يؤمن بالعقل والعمل وزواجها تأكيد للقاء الشعر والعلم وللتجاوب بينهما بل وبين العمل في نفس الوقت^(٢١). وهذه هي رسالة نجيب محفوظ في كثير من رواياته حيث يشرّح أهمية العلم والأدب والعمل، ومع أن موقفه هذا قد يتضح اتضاحا كثيرا في هذه الرواية على نحو ما نعرف من قول عثمان خليل إذ يخاطب بطل الرواية عمر الحمزاوي: "لن تبلاغأي حقيقة جديرة بهذا الاسم إلا بالعقل والعلم والعمل"^(٢٢).

انتقد الدكتور عبد القادر القط على مؤلف الرواية قائلا: إنه من الحق أن الجنس والشراب والمتع الحسية من الوسائل التي يلجأ

إليها أكثر من يعانون الأزمات النفسية والتي عانها بطل رواية الشحاذ، ولكنه من العجب أن يلجأ إليها شخص مثقف مثل عمر الحمزوي... لكان "أجدر بمثل هذه الشخصية أن تتقلب في صراعها بين نزعاتها الحسية وتأملاتها الفكرية وشطحاتها الروحية ليصبح لها كيان مركب جدير بأن يحمل هذا المعنى الكبير الذي أراد الأستاذ نجيب محفوظ أن يحملها إياه من بحث عن الله وعن سر الوجود". وقد استمر عبد القادر القط قائلاً: كان على مثل هذا المفكر والشاعر أن يلجأ إلى طرق أخرى منها القراءة والتأمل ومراقبة الحياة والناس ولا يلجأ إلنألي لجأ إليها كالجنس والخمر وغيرهما^(٢٣). وقد نتفق مع الدكتور عبد القادر القط إلا أن نقده نقد أخلاقي وليس نقداً فنياً، والرواية التي يساق عنها الحديث ليست من الروايات المثالية التي لا تهتم إلا بتقديم الأشياء المثالية وتغفل عما حدث ويحدث في الحياة الواقعية إغفالاً تاماً، بل أنها على العكس رواية واقعية تعبر كما ذكرنا أنفاً عن أزمة إنسان العصر الحديث من خلال عمر الحمزوي الذي يعكس أزمة الطبقة المثقفة المصرية وأثر هذه الأزمة على هذه الطبقة بوجه عام في الستينات من القرن العشرين. فهذا الشيء ليس من نقائص الرواية بل إنه الذي امتازت به الرواية إمتيازاً خاصاً، وأنه الشيء الذي يوجد عند الكتاب الوجوديين الكبار من أمثال دانتي SorenKierkegaard: 1813-) وكييركغارد (Dante Alighieri: 1265-1321) وإيسن (Henrik Ibsen: 1828-1906) وبيكت (Samuel Beckett: ١٨٥٥-١٩٠٦-١٩٨٩) وغيرهم^(٢٤). بالرغم من كل ذلك لا مفر لنا من أن نتساءل عن إرادة نجيب محفوظ عن المعنى الكبير الذي قصد هو بهذه الرواية: إذا كان عمر الحمزوي حقا يبحث عن الله وسر الوجود فماذا فعل لكي يبحث عن هذه الحقيقة الخالدة بل متى فكر هو فيها تفكيراً جدياً^(٢٥)؟

وفي الختام نؤكد أن رواية "الشحاذ" لكانت رواية متشائمة لو لم يهتم مؤلفها بالواقعية والاشتراكية مع اهتمامه الخاص بالوجودية. فإنه نجح بلا ريب في جعل روايته هذه أن تنتهي بطريقة إيجابية. ليس هذا فحسب بل أننا لا نجد فيها أي إشارة إلى انتكاس الأزمة، وهذه هي الأشياء التي امتاز بها نجيب محفوظ من معظم الكتاب الوجوديين من أمثال كييركغارد وإيسن وبيكت وغيرهم الذين جعلوا

مؤلفاتهم متشائمة إلى أبعد حد. فقد تفقد مؤلفاتهم جميع الأشياء
الإيجابية التي أصبحت أهم خاصية رواية "الشحاذ" للأستاذ نجيب
محفوظ. (٢٦)

المراجع

١. "الشحاذ" رواية نجيب محفوظ ظهرت سنة ١٩٦٥م.
٢. تحتوي هذه المرحلة على روايات ظهرت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م.
٣. رجاء النقاش: أدباء معاصرون، مكتبة الأنجلوا المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٨، ص: ٢٢٠.
٤. نفس المرجع، ص: ٢١٨-٢٢٠.
٥. فاطمة الزهراء محمد سعيد: الرمزية في أدب نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨١، ص: ٢٩٥.
٦. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ١٨٧.
٧. نجيب محفوظ: الشحاذ، الأعمال الكاملة، الجزء السابع، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت (بدون التاريخ).
٨. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ١٩٣.
٩. الشحاذ، ص: ١٩٥.
١٠. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ١٩٣.
١١. عبد القادر القط: في الأدب العربي الحديث، مكتبة الشباب، ٢٦/ شارع إسماعيل سري بالمنيرة الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٨، ص: ١٤٨.
١٢. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ٢٠١.
١٣. رواية الشحاذ، ص: ٣٠٩.
١٤. الرواية، ص: ٣٩٣.
١٥. الرواية، ص: ٤٠٣.
١٦. المأخوذ عن: الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ٢٠٠.
١٧. نفس المرجع، ص: ٢٠٥.
١٨. نفس المرجع، ص: ٢٠٣.
١٩. الرواية، ص: ٤١٠.
٢٠. الرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص: ٢٠١.
٢١. نفس المرجع، ص: ٢٠٩.
٢٢. الرواية، ص: ٣٨٩.
٢٣. عبد القادر القط: في الأدب العربي الحديث، ص: ١٤٨.
٢٤. J.E. TAMMANY: "RIYADH DAILY", December 14, 1988, P: 14.
٢٥. عبد القادر القط: في الأدب العربي الحديث، ص: ١٤٨.
٢٦. J.E. TAMMANY: "RIYADH DAILY", December 14, 1988, P: 11.